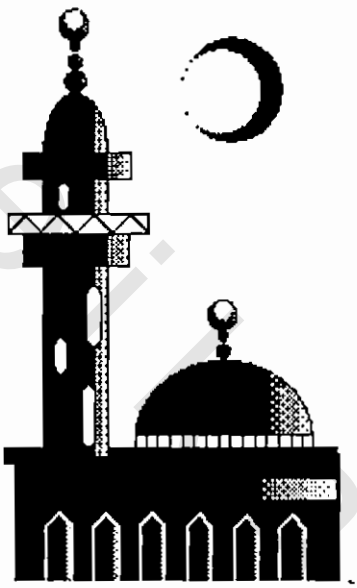

الفصل السادس عشر

أهم ثمار التطوّر الإنسانى فى الأديان

obeikan.com

أهم ثمار التطوّر الإنسانى فى الأديان

■ **أولا: حيث لا حضارة تكون رسالات السماء.**

عاش الكائن البشرى عدّة ملايين من السنين «يقف على قدميه كل الوقت» وتُمثّل هذا الإنسان حفرية بكّين، أو ما يُسَمّى «إنسان بكين» الذى لم يكن يختلف ـ إلا اختلافا محدوداً ـ عن الشمبانزى، الذى كان يشاركه العيش فى مناطق الساڤانا (الحشائش والأعشاب والشجيرات الصغيرة).. ووقوفه فى الساڤانا على قدميه أتاح له استكشاف فرائسه واستكشاف أعدائه.. وكذلك كان الشامبانزى قادرا على «الوقوف على قدميه بعض الوقت».. وبتفتيش الكهف الذى طُمِر فيه «إنسان بكين» تبيّن أنّه كان قادرا على إشعال النار، كما كان قادرا على صنع أسلحة خشنة من الحجر والخشب وأسنان الحيوان.. والفرق التطورى بين «إنسان بكين» و«إنسان نياندرتال» فرق كبير.. ففى مئات آلا فالسنين التى فصلت بن الاثنين تطور المخ لدى «إنسان نياندرتال» بحيث زاد عن ٥٠٪ من حجم مخ «إنسان بكين». فى حين أن الإنسان الحديث **H.Sapiens** لا يختلف وزن مخه عن وزن مخ نَمَط نياندرتال.. والذى وسّع العمليات العقلية عند الإنسان الحديث **Homo Sapiens** هو تعرّف الإنسان الحديث على صوته وبداية استغلاله للصوت فى النداء والإشارة من بعيد.

ساعد التصحّر فى مناطق الساڤانا على نمو عقل الإنسان الحديث.. ذلك أن التصحّر ألجأ البشر إلى وديان الأنهار، إن كان هناك أنهار، وحيث تكون الأنهار تكون الغابات، وينادى البشر بعضهم بعضا فتطورت الأصوات إلى

لغات، وفكّر الإنسان باستخدام اللغة كوسيط للعقل؛ واحتاج الإنسان إلى وقت من الليل، فأشعل النار وتجمع البشر فكانت الحضارات حول الأنهار فى مصر وبابل وآشور والهند والصين...

وارتقى الإنسان وآمن بالأخلاق والضمير والصدق والعدل (الإلهة ماعتْ عند المصريين) قَبْل اليونان والرومان وأصوات سقراط وأفلاطون وأرسطو.. بل قبَل إبراهيم وموسى وأشعياء وداود وسليمان ويسوع ومحمد ببضعة آلاف من السنين، كان أنبياء مصر وحكماؤها يبشّرون ـ بعد عصر التوحّش ـ بعصر إنسانية الإنسان وفجر الضمير.

إن الارتقاء الأخلاقى الذى قامت به الحضارات القديمة (فى مصر وبابل وآشور وفينيقيا وفارس والهند والصين...) لم يصل إلى ثماره بعْدُ.. إنه يصل إلى ثماره حين يتحكم البشر فى أعدادهم المتزايدة، وحين تقلّ أعداد البشر، تكفى خيرات الأرض كلَّ البشر فتنتهى الصراعات والحروب.

على أرض فلسطين تقوم آخر حروب الإبادة، حيث يقوم الأوربيون والأمريكيون وغيرهم بإخراج الفلسطينيين من أرضهم (بعد ارهابهم بالقتل والسجن) وإحلال يهود العالم محلهم.. باجتراء وقح على القيم والأعراف والمبادئ والقوانين.

إن الارتقاء الإنسانى الاجتماعى والأخلاقى يمثّل نوعاً من التطوّر الجديد للجنس البشرى.. وإن الصراعات البشرية، والسياسات غير الأخلاقية لبعض القوى المتحكمة فى مصير العالم ـ كالولايات المتحدة ـ هى التى تسمح ـ من حين لآخر ـ بحدوث جرائم دولية كجريمة طرد الفلسطينيين من أرضهم وإحلال آخرين مكانهم.. بل كثير ما قامتْ هذه القوى المتحكمة بحروب

وإغارات على مناطق كثيرة (كالعراق وأفغانستان) دون ما سند من حقّ أو قانون.

دول الحضارات القديمة (مصر. بابل. آشور. فينيقيا. فارس. الهند. الصين) قام أنبياؤها بجهد كبير فى نمو الحضارة الإنسانية.. أما البدو الساميون من عبرانيين وغير عبرانيين، فلم يسهموا فى الحضارة الإنسانية.. إن حضارات شرق آسيا فى فارس والهند والصين واليابان، ساهم أنبياؤهم (بوذا. ذرادشت. مانى. كونفشيوس...) فى رقى الإنسان.. أما العبرانيون فإنهم قدّموا للبشرية قيادات عسكرية وسياسية تهدف إلى توحّدهم لغزو دول الحضارات.. كانت مصر القديمة فى حاجة إلى نبوات ترقّى الأخلاق فظهر أنبياؤها.. وكانت فارس فى حاجة إلى نبوات فظهر أنبياؤها.. وكانت الهند فى حاجة إلى أنبياء يحرّكون ضمائر البشر فكان أنبياؤها.. وكذلك فعلتْ الصين.

أما العبرانيون والساميون، فلم تكن لديهم حضارة، هم مجرد بدو ضاربين فى الصحراء، بلا حضارة ترقّق المشاعر وتهذّب السلوك.. وحيثما لا تكون حضارة تكون رسالات السماء.

☆☆☆☆☆

■ **ثانيا : ثمار كشف آثار الحضارات ولغاتها .**

يقول جيمس هنرى برستِدْ[1] : « يرفض دارسو الحضارات الإنسانية الآن ادعاءات أنبياء الساميّة، بأن رسالاتهم قد هَبَطَتْ لهم من السماء، بالرغم من أن أنبياء الحضارات لم يدّعوا صلة بالسماء (أنبياء مصر وفارس وفينيقيا، وبابل وآشور والهند والصين واليابان) والذى جعل أنبياء السامية يدّعون ذلك التميّز، أنهم سلبوا أنبياء الحضارات نبواتهم . . ثم زالت الحضارات القديمة، وطُمِرَتْ آثارها وضاعت لغاتها ومتونُها المقدسة . وتمّت ـ منذ منتصف القرن التاسع عشر ـ كشوف كثيرة للحضارات الغابرة، كما استطاع علماء أوربيون فك طلاسم اللغات القديمة (الكتابة المصرية – شامبليون – حجر رشيد) ووازنوا بين متون أنبياء السامية، وأنبياء الحضارات القديمة، واكتشفوا أن الأنبياء العبرانيين الساميين، نقلوا معظم متون الحضارات القديمة . . ولعل أهم وأجل خدمة قدّمتها لنا الحفائر الأثرية هى كشفها عن التقدّم الاجتماعى والخلقى الذى أحرزته حضارة عظيمة كالحضارة المصرية بأنبيائها الأخلاقيين، قبل العبرانيين بأكثر من ألفىْ عام . . حيث قام العبرانيون منذ وقت كبير بالتلمذة على أيدى أنبياء مصر » .

إن أنبياء مصر وصلوا منذ آلاف السنين إلى قيمة الطقوس الدينية كوسيلة تعويد للبشر على الخضوع وتنفيذ أوامر رع (لا = الله) أو آمون أو آتون . . بل كانت لدى المصريين صلوات جماعية يؤمها الكاهن . . وانتقلت صُوَرُ العبادات المصرية للعبرانيين، بل ولليونان والرومان والكنائس المسيحية . . « كُشِفَ عن تأثير مصرى لطقوس عبادات وصلوات على نهر الفرات، حيث عُثِر على قلعة شاسعة يعرفها الأهالى باسم قلعة « الصالحية » ،

وكُشِف عن أحد عشر شخصا مصورين على الجدار بحجم طبيعى وهم يؤدون صلاة ويؤمهم كاهن بملابس مصرية.. ثم كُشِفَ بعد ذلك عن تصوير لطائفة من الجنود الرومان فى أوائل الميلاد يقودهم شخص اسمه يوليوس ترنيتوس ويؤمّهم فى صلاة جماعية»(٢).

كذلك رأى جيمس هنرى(٣) فى مناطق مختلفة من سيناء صورا لفراعنة على بعض بقايا الجدران.. وكانت مصرُ هناك فى سيناء تصدّ عن حدودها جائحة القبائل العبرانية الجائعة.

كان وجود اليهود «وجودا حفريّا نادرا» فى العالم قبل الميلاد.. كان آحادٌ منهم يعملون فى مكتبة الإسكندرية الكبرى التى كانت جامعة كبرى لكل شعوب الشرق الأدنى والبحر المتسوط.. ويرى معظم دارسى الأديان أن المسيحية هى التى أظهرت فكر اليهودية والعهد القديم.. فاليونان والرومان من بعدهم تجاهلوا وجود اليهودية كدين.. وحين بدأت المسيحية تنتشر (أولاً من مصر).. فكأن «العهد القديم» انشقّ وخرج منه اليهود.. مع شعور الدارسين ـ فى ذلك الوقت ـ أن العهد القديم ما هو إلا فكر المصريين، وقد حَذَفَ منه العبرانيون الآخرة وعالم الثواب والعقاب.. وأحيانا يؤمن بعض أنبياء العبرانيين المتأخرين مثل دانيال ويسوع المسيح بالآخرة والقيامة (وإن كان مع الشكّ فيها كما ينقله إلينا التعبير المسيحى «رقد على رجاء القيامة») ولعل الأنبياء العبرانيّين الذين زاروا مصر ودخلوا معابدها، كانوا ـ

(١)،(٢)،(٣) جيمس هنرى برستد مؤرخ وآثارى عظيم متقن للغة المصرية، وصاحب «فجر الضمير» الذى يرى أن مصر علّمتْ أنبياء السامية - تُرْجِمَ الكتاب إلى العربية الآثارى المصرى العظيم سليم حسن - طبعة جديدة ١٩٩٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كالمصريين ـ مؤمنين بالآخرة.

الفلاسفة والعلماء السكندريون عدد ضخم.. وغلب على جامعة الإسكندرية ـ قبل الميلاد وبعده بقليل ـ الإيمان بـ« الصدفة » كقانون أبدىّ، أما الآلهة فقد جرّدّوها من ثوبها الأسطورى الذى يجذب البشر.. وتحوّل مبدأ « الصدفة » إلى البحث فى العِلَل المؤدية للظواهر وقوانين الطبيعة.. وكانت المرحلة السكندرية من المراحل البشرية العلمية التى أثمرت فى مصر، وكانت جامعة الإسكندرية تضم أعلاما بارزين أسهموا وأثمروا فى التقدم الإنسانى:

- إقليدس السكندرى متخصص فى الرياضيات والهندسة.
- أرشميدس فى الرياضيات والفيزيقا.
- أرِسْتَرْخوس فى الفَلَك والرياضيات.
- أراتو سيثينيث فى الجغرافيا وتقاويم البلدان.
- هيروفيلوس فى الطب.

إن السكندريين كان من ثمارهم الإيمان بالقانون العلمى حيث يبحثون عنه.. وبعض الدارسين الأوربيين يعتبر السكندريين وديكارت وابن رشد من أكبر الدعاة إلى منهج الشك الذى أدى بالإنسان إلى اكتشاف القوانين العلمية.. إن عصور « اليقين » الدينى الأسطورى، ليس لها ثمار إلا التخريب للعقل والحضارة.. إن رجال الدين يحاولون التقليل من شأن العلم، ويَصِمُون العلم بالتفاهة، بل إنّ أحدهم، وكان يملأ شاشات التلفزيون ـ رحمه الله ـ يقول: « إنّ من اخترع ورقة الكلينيكس أو عود الكبريت، قد أفاد البشرية أكثر مما أفادها من اخترع الصاروخ الذى سافر إلى القمر ».

☆☆☆☆☆

■ **ثالثا : البابا والبطريك والخليفة.**

بابا **papa**، بطريك **patriarchate** ، خليفة.. اللقبان الأول والثانى لهما صلة بالأبوة وارتفاع المكانة. و« الخليفة » تسكت عنه المجامع العربية ولا تقول لنا : من الذى يخلفه الخليفة؟ هل يخلف الله؟ هل يخلف الرسول؟ كلّ ما ذكرتْهُ كتبُ التاريخ الإسلامى : أن عمر بن الخطاب، بعد وفاة أبى بكر، وكان لقب أبى بكر « خليفة رسول الله » فلم يرض عمر بأن يُقال عنه : « خليفة خليفة رسول الله »، وقال للناس : أنتم المؤمنون، وأنا أميركم، فأنا أمير المؤمنين.

أعلام الدراسات الدستورية والسياسية فى العالم، وعلى رأسهم آباء الديموقراطية « والعقد الاجتماعى » يروْن من استقراء التاريخ الماضى والمعاصر ـ أن « قيام دولة على أساس دينى معناه العودة بالمجتمع إلى ظلمات العصور القديمة، « حيث يتحوّل النظام السياسى (الذى يُفترض أنه مبنىّ على العقد الاجتماعى) إلى نظام يشبه « النظام العسكرى » المعتمد على قائد يصدر أوامر، وجنود يمتثلون وينفذون تلك الأوامر، ومن يعترض ليس له إلا الموت، لأنه خائن »(١).

خضعت العصور الوسطى المسيحية لهذا النظام العسكرى الدينى الرهيب، وحكم على كثيرين بالكفر وأُعدِمُوا .. حتى نهض الأوربيون وتخلصوا من سطوة البابا والبطريرك.. ونفّذوا قول المسيح « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وظهرت العلمانية بمعناها الصحيح **Secularism**، وهو

(١) جان جاك روسو – العقد الاجتماعى.

الفصل بين الدين والدولة وارتقت أوربا بالدساتير والقوانين المدنية.

أما العرب والمسلمون، فقد قهرهم الخليفة، وأمير المؤمنين، والسلطان، والزعيم المؤمن وآية الله.. وهؤلاء جميعا يزعمون «أنهم ينفذون شرع الله» ليجتذبوا إليهم السُّذّج من عباد الله الذين تغريهم الأسطورة ويعجزون عن فهم العلم والحقوق:

١- كان معاوية بن أبى سفيان، بعد مصرع الإمام علىّ، أميراً للمؤمنين، ومعاوية أحدُ كتّاب الوحى، أمر بلعن علىّ على جميع منابر المسلمين.. ولما عوتب فى ذلك قال: سيستمرّ اللعن، حتى يَشُبّ عليه الصغير ويشيب عليه الكبير، وظل لعن الإمام علّى سُنّة عند بنى أمية، حتى وصل إلى الخلافة عمر بن عبد العزيز فأبطل اللعن.

٢- أبو عبد الله السفاح شقيق أبى جعفر المنصور وأحد مؤسسى الخلافة العباسية العاملة بالكتاب والسنة، كان وراء قتل أبى مسلم الخراسانى دون سند من الشرع، بل جمع الأمويين وذبحهم، وبَسَطَ على جثثهم البُسُط وتناول عشاءَه، بينما كانت أجساد بنى أمية لا تزال تَرْعَش.. وأبو عبد الله السفاح كان ـ قطعاً ـ يعمل بشرع الله بحسب ادعائه!!!

٣- والرشيد ـ أمير المؤمنين ـ وخليفة الله أو خليفة النبىّ، جمع البرامكة (الذين أداروا له الدولة) وذبحهم جميعا، دون ما سند من شرع.

٤- والجماعات الإسلامية المعاصرة، التى ترفع شعار «تطبيق الشريعة» إن وصلت إلى الحكم لن تكون أقلّ انتهاكا للحريات وحرمة الدماء من السابقين.. إن هذه الجماعات قتلت السادات، توهّما أن قتله سيجعلهم حكاما.. وكذلك قتلوا فرج فودة.. وحاولوا قتل نجيب محفوظ..

وحاولوا قتل نصر حامد أبو زيد، ولما لم يستطيعوا استصدروا حكما للتطليق بين الدكتور نصر وزوجته (لا أدرى كيف استطاعوا ذلك) وهرب نصر مع زوجته خارج البلاد.

٥- ووصل «آيات الله» إلى الحكم فى إيران.. صحيح أن النظام الملكى الإيرانى كان مستبدا وكان يستعبد الشعب.. وصف الأستاذ محمد حسنين هيكل المخيّم الملكى الذى أقيم فوق هضبة بعيدة عن طهران، فقال: طهروا الهضبة وضربوها بالنابالم، وأقامت لهم شركة فرنسية مخيمّا كقطعة من الجنة، وكان المرحوم حسين الشافعى حاضراً ممثلاً للحكومة المصرية، ويذكر الأستاذ هيكل أن بعض أدوات السفرة كانت من الذهب، ونظرا لأن الاحتفال كان بمرور مئات السنين على عرش الطاووس، فكانوا يستوردون الطواويس من الهند مع كل صباح لتكون جاهزة مع وجبة العصر.. كل هذا صحيح.. وكان الشاه يستحق أن يثور شعبُه عليه.

لكنْ: ما النتيجة؟! كلّ العالم كان يتوقع حكومةً رشيدةً مؤسسةً على الديموقراطية.. ولكنْ تحولتْ حكومة آيات الله إلى حكومة دينية ذات طابع عسكرى.. وضاعت حريّات الناس.. وضاعت أرواحٌ كثيرة.

☆☆☆☆☆

■ رابعاً: الثمرة الأخيرة:

«تطوّر القوانين ونسخُها فى الإسلام»

النسبة الغالبة من المفسرين يرون فى «النسخ» تغييرا فى الأحكام أو إسقاطاً لبعض الأحكام. فالآية ١٨٠ من سورة البقرة تقول: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ ويعلق صاحبا تفسير الجلالين على نسخ الحكم فى الآية فيقولان «وهذا كله منسوخ بآيات الميراث، وبحديث الرسول: «لا وصيةَ لوارث» الذى رواه الترمذى. ويؤكدان ما يقولان فى تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة التى تقول: ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ويفسران فيقولان ﴿ **نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ** ﴾ أى نُزِلْ حكمها، إما مع لفظها أوْ لا. ﴿ **نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا** ﴾ أنفع للعباد. ﴿ **أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ فى التكليف والثواب.

كذلك من الثابت تاريخيا أن رسول الله سمح بزواج المتعة (المعلّق على زمن) فى بضعة الأيام التى قضاها المسلمون فى مكة بعد فتحها.. ثم نُسِخَ هذا الحكم بعد خروج المسلمين من مكة إلى المدينة (وإن كان الشيعة يرون أن السماح بزواج المتعة له أدلة، أما نسخ الحكم فلا دليل عليه).

ومحصلة كل هذا أن الرسول غَيّر أحكاماً بنسخها فى حياته هو، وحياته لم تزد عن بضعة وستين عاما..والزمن بين وفاته، وبين زمننا أربعة عشر قرنا.. إذن فإعادة تفسير الأحكام، أو حتى تغييرها أمر مقبول بل مطلوب لصالح المجتمعات الإسلامية.

واليهود والمسيحيون يتغاضوْن عن أحكام سابقة، يروْن أنّها لا تتفق مع الظروف الآنية، ولهذا وضعوا قوانين جديدة، وغضّوا الطرف عن أحكام العهد القديم والعهد الجديد.. وبدهىّ أن الكنائس الشرقية تحافظ على القديم، بعكس الكنائس الغربية والبروتستانت (تلتزم الكنيسة المصرية بأن لا طلاق إلا لعلة الزنا) كما تلتزم بأن «ما جمعه الله لا يفرقه إنسان»).

أما الجماعات الإسلامية فهى جماعات مندفعة أو مدّعية، كل ما يهمها هو الوصول إلى الحكم برفع شعار تطبيق الشريعة الذى يجتذب البسطاء من الناس.

وكلنا يعرف مأساة على بن أبى طالب، حين رفع عمرو ومعاوية المصاحف على أسنّة الرماح مطالبين بأن يكون «الحكم لله».. ونادى الإمام علىّ جنوده، وقال لهم عن خدعة عمرو ومعاوية إنها «كلمة حق يُراد بها باطل» لكنْ؛ لم يستجب أحد للإمام علىّ.. إن عَمْراً ومعاوية لم يكونا صادقين فى قولهما «إن الحكم لله»؛ وفى الحقيقة كانا يطلبان الحكم لبنى أمية.

إن من يرفضون الناسخ والمنسوخ فى القرآن، وفى أحكام أخرى وردت فى السُّنّة، يرفضون النّسخ لأنهم تعوّدوا على وضع قائم لا يقبلون غيره، كما أنهم يرفضون «إعادة قراءة أو تفسير النصوص وفقا للمصالح المرسلة» لعباد الله.. مع علمهم بأن «المصالح المرسلة» باب كبير من أبواب الاجتهاد فى الإسلام. وحين قرأ هؤلاء أن المجْمَع الفقهى التونسى فى سبيله لإلغاء تعدّد الزوجات، وفقا للمصالح المرسلة، واستدلالا ببعض آى القرآن ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ من الآية ٣ من سورة النساء، كمقدمة كبرى، ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ من الآية ١٢٩ من سورة النساء، كمقدمة صغرى أو مقدمة تعليلية كما يقول

أرسطو فى قواعده المنطقية، والنتيجة منْع التعدد] حين قرأ هؤلاء ما يعتزمه المجْمَع الفقهى التونسى ثاروا وهاجموا التونسيين.

إن هؤلاء الذين يرفعون شعار «لا حكم إلا لله» وشعار «تطبيق الشريعة الإسلامية» لا يهمهم الإسلام ولا يهمهم المسلمون، إن الإسلام عندهم «مجال حيوى» أو «بيزنس» يحققون فيه مصالحهم الشخصية، فضلا عن أنهم يعرفون «ترف الحكام العرب والمسلمين» فيسعون إلى الحكم برفع الشعارات (ولا مانع لديهم من رفع المصاحف على أسنّة الرماح كما فعل عمرو ومعاوية سعيا إلى الحكم).

ونذكر ـ بالتقدير ـ الخليفة الثانى عمرَ بن الخطاب، فبعد أن طعنه أبو لؤلؤة، عَيّن الستّة الذين يُختارُ منهم الخليفة الثالث، وعَرَض المحيطون به أن يجعلهم سبعة بإضافة اسم ابنه الحافظ الفقيه «عبد الله بن عمر»، فرفض عمر وقال: «يكفى أبناء الخَطّاب أن يتحمّل واحدٌ منهم عبء الحكم».. فالحكم ـ عند عمر ـ عبء.

☆☆☆☆☆